(٨)

سلمان (الناقد الحضاري)

obeikandl.com

obeikandl.com

سلمان (الناقد الحضاري):

مصطلح القرون الوسطى المظلمة

لا ينطبق على حضارتنا العربية الإسلامية

قرأنا في مقدمة الكتاب: (وبمقتضى سبب أن عقيدة التوحيد هي نبع الإبداع في الحضارة العربية الإسلامية: يرفض سلمان بن عبدالعزيز بقوة (إسقاط مصطلح القرون الوسطى المظلمة) على التاريخ العربي الإسلامي).

وفي هامش من هوامش تلك المقدمة وردت العبارة الآتية: «للأهمية القصوى - المعرفية التاريخية التوثيقية الحضارية - لهذه القضية (قضية مصطلح القرون الوسطى المظلمة) التي التبست على كثير من العرب والمسلمين وغيرهم عقدنا لها فصلاً خاصاً مستقلاً استناداً إلى المبادأة والفكرة الأصيلة عند سلمان بن عبدالعزيز».

وها هو الفصل الخاص المستقل.

وهو فصل مرتكز على مبادأة فكرية تاريخية ابتدأها سلمان منذ مدّة طويلة.. ثم أخذ يطرحها ويؤكدها كلما لاحت مناسبة، أو ردد بعضهم - في غير علم ولا توثيق - مصطلح القرون الوسطى المظلمة، وذهب يسقطه على التاريخ العربي الإسلامي.

وموجز فكرته الأصيلة هو: «أنه قد شاع على نطاق واسع ليس بين العوام وإنما بين شرائح واسعة من المهتمين بالثقافة والفكر والإعلام والتاريخ والحضارة.. شاع بين هؤلاء مقولة (القرون الوسطى المظلمة)، ولا بأس في شيوع مثل هذه المقولات والكلمات في البيئة التي نشأت فيها، فلكل بيئة وحضارة وتاريخ كلمات تناسبه من حيث إنها نبتت فيه واستمدت من واقعه، وعبرت عن ذلك الواقع سواء أكان حسناً أو سيئاً، ولكن الخطأ الجسيم هنا أن كلمة القرون الوسطى المظلمة حاول بعضهم - في ديار العرب والمسلمين - سحبها وتطبيقها على الحضارة العربية الإسلامية، فيقولون مثلاً: أتريدون الرجوع بنا إلى القرون الوسطى المظلمة؟. وهذا خطأ فادح مصدره الجهل بتاريخ الحضارتين الإسلامية والغربية؛ لأن القرون الوسطى المظلمة في أوربا يقابلها - بالضبط - القرون السبعة الأولى للحضارة العربية الإسلامية، وهي قرون أو عصور كانت (مركزاً عالمياً) زمانياً ومكانياً للتنوير العقلي والمعرفي والثقافي والاجتماعي والعمراني.

■ والحق أنها ليست مجرد فكرة ذهنية ألمعية، وإنما هي فكرة (موثقة) تاريخياً وفق منهج الدراسات التاريخية المقارنة من الناحيتين الزمنية والموضوعية.

لأجل ذلك، فإن الفصل كله (توثيق مكثف) لفكرة سلمان المفعمة بالتنبه التاريخي، واليقظة الحضارية، والفطنة العربية الإسلامية.

سواء أصحّ قول بول كندي في كتابه... (نشوء القوى العظمى وسقوطها) بأن أغلب الدارسين قد اتفقوا على أن الحد الفاصل بين العصرين: الحديث وما قبله - أي: القرون الوسطى - هو عام ١٥٠٠م، أم صحّ قول رونالد ستورمبرج في كتابه: (تاريخ الفكر الأوربي الحديث) بأن هناك إجماعاً على أن الفكر الأوربي دخل عصره الحديث في القرن السابع عشر الميلادي، سواء أصحّ هذا القول أم ذاك فإن الحقيقة الموضوعية هي - في الحالين - أن أوربا كانت قبل هذين التاريخين بلا نهضة (تنويرية) كالتي عرفت بها من بعد.

وما قبل النهضة هو الحقب التي وصفت في الدراسات التاريخية والحضارية - بـ(القرون الوسطى) أو (العصور الوسطى المظلمة).

(فما هي القرون الوسطى؟)

هي الحقبة التي بدأت بأواسط الألفية الأولى للميلاد أي: الحقبة الممتدة من سقوط الدولة الرومانية إلى عصر النهضة الحديثة في أوربا، وهي حقبة تبلغ عشرة قرون تقريباً.

فقد سقطت الدولة الرومانية في القرن الخامس للميلاد.. فلم يكد ينتصف القرن الخامس حتى تمزقت الإمبراطورية الرومانية شر ممزق، حيث تفككت معظم أجزائها.. وإذا أخذ بالرأي القائل بأن العصر الحديث في أوربا قد بدأ في القرن الخامس عشر فإن المدى الفاصل بين سقوط الامبراطورية الرومانية وبين عصر النهضة يبلغ عشرة قرون.

صحيح أنه بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الكبرى، كانت هناك محاولات لاسترداد القوة والعافية الغربية في شكل ما كقيام الممالك الجرمانية التي حاربت الإمبراطورية الرومانية، وكالدولة البيزنطية، وقيام إمبراطورية جديدة على يد شارلمان. لكن السياق الغالب على الأوضاع الأوربية كان هو التخلف والانحطاط.. ومن أسباب التخلف ومظاهره: التحجر الفكري.. والخلافات الدينية العاصفة.. وسطوة الكنيسة.. والحروب الضروس.. والانحلال الاجتماعي.. واستبداد الإقطاع.. وشيوع أجواء الدسائس والمؤامرات.. وضعف الإنتاج.. وفقدان هدف واضح للحياة.

وصف عام أو صورة موجزة
لأوضاع أوربا في القرون الوسطى المظلمة

١- يقول (ستانوود كب) - في كتابه: المسلمون في تاريخ الحضارة -: «وعلى سبيل المثال لنتصور عالم القرن السابع الميلادي (يقابل العام الأول الهجري) إذ كان مولد الإسلام، ولنتبين حالة الحضارة الإغريقية الرومانية، لقد توقفت هذه الحضارة القديمة، وأصابها الجمود، وغدت تفتقد الحيوية والانطلاق، ولم يعد هناك نشاط علمي يمارس بأي مركز في أنحاء العالم»[١].

٢- ويقول (أرنولد توينبي) - في كتابه: تاريخ البشرية -: «كاد القرن السابع أن يكون حقبة اضطراب مستمر، فقد كادت فتنة ٦٠٢ ومقتل الإمبراطور موريس أن يلقيا بالإمبراطورية في أحضان الفوضى»[٢].

٣- ويقول (رونالد سترومبرج) -في كتابه: تاريخ الفكر الأوربي الحديث-: «ونحن لا شك نخطئ خطأ فادحاً إذا اعتقدنا أن القرون الوسطى كانت تمثل (عصر الإيمان). فذاك العصر كان مرحلة تاريخية أطلقت خلاله شعوب بربرية

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص١٠٨.
(٢) ارنولد توينبي: تاريخ البشرية جـ٢ ص ٩٦.

طاقاتها الوحشية التي هددت بإسقاط كل نظام، فانسحب الورع لائذاً بالأديرة للحفاظ على بقائه، وتشهد بذلك حاجة تلك الحقبة إلى الإصلاح الديني. فنظام الإقطاع الغليظ نظم الكنيسة أو قيدها، ورافق ذلك تضاؤل البابوية مركزاً وهيبةً، وأخذت الطبقة الدنيا من الشعب تقذف المجتمع بين حين وآخر ببعض أبنائها الذين كانوا يجاهرون دون وجل أو خوف بمعتقدات مخالفة لمعتقدات الكنسية، وغدا رجال الدين المسيحي موضوعاً لسخرية الشعراء وواضعي الأغاني الشعبية. وأمست اللذائذ الحسية والتغني بها أمراً شائعاً ومألوفاً، وكان أبرز الكتّاب في ذاك المضمار، ولا سيما قرابة نهاية القرن الثالث عشر هو جان دي مين»[١].

٤- ويقول عبدالفتاح أبو عليه، وإسماعيل ياغي - في كتابهما: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر -: «وبسقوط الدولة الرومانية الغربية، وبانتشار القبائل الجرمانية في أنحاء أوربا الغربية، عمت حالة من الفوضى والاضطراب عندما انحلت الرابطة التي كانت تجمع معظم أوربا في دولة واحدة، وأصبحت أوربا موزعة بين قوى سياسية من أقوام همج، لا عهد لهم بأساليب الحكومات المنظمة، فأهملت الصناعة والتجارة

(١) رونالد سترومبرج: تاريخ الفكر الأوربي الحديث ص ٣٤.

والزراعة، إلا ما كان يسد الحاجة. واحتمى الضعفاء بزعيم ما يكفل لهم الحماية والدفاع ضد المغيرين عليهم من جيرانهم، مقابل أن يقدموا له خدمة، وبهذا الشكل ظهر النظام الإقطاعي في أوربا المعروف بـ(نظام العصور الوسطى الأوربية)[١].

٥- ويقول محمد العزب موسى - في كتابه: (حرية الفكر) -: «وفي روما أحرقت جميع كتب العقائد القديمة، وفي عام ٦٠٠م دمرت مكتبة روما، وحرّم نهائياً تدريس أي كتاب للأقدمين سواء أكان في الدين أم الفلسفة أم الأدب أم العلم.. ويقول الأسقف كريستوموس الذي عاش في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي: إن أعمال جميع المؤلفين والفلاسفة القدامى قد اختفت من على وجه الأرض.. وأصبح ما نجا من مؤلفات شيشرون وأفلاطون وفرجيل وهوميروس ترقد مهجورة منسية في بطون المخابئ والأقبية. إن أمامها ستة قرون أخرى قبل أن تبعث من مرقدها على يد العرب المسلمين.

«إن روجرز بيكون الفيلسوف العالم المخترع الإنجليزي الرائد الكبير للعلم الحديث، عاش مطارداً ومضطهداً،

(١) عبدالفتاح أبو علية. وإسماعيل ياغي: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر ص٧.

فأشـيع عنه الاشتغال بالسـحر، وحرم في عام ١٢٥٧ من إلقاء محاضراته في جامعة أكسـفورد، ثم وضع تحت إشراف بعض الرهبان في باريس، ثم يدان ويلقى به في السـجن، ويمكث فيه ١٥ عاماً قبل أن يطلق سراحه وهو في سن الثمانين.

«وهكـذا كانت المؤسسـة الدينيـة في القرون الوسـطى لا تكتفي باضطهاد مخالفيها في الدين، وإنما كانت تدين البحث العلمـي، وتحـارب (حريـة الفكر)، ووصـلت إلى حـد تحريم الطب، وأدى ذلك إلى تأخر عصر النهضة الأوربية قروناً عدة، وامتداد الآلام البشرية طيلة هذه القرون.

«وخطا البابا جريجوري الرابع الخطوة الحاسمة نحو إنشاء (محاكم التفتيش) حين أصدر في عام ١٢٢٣م أمراً للأساقفة بأن يستخدموا (الاعترافات) التي يدلي بها الناس في مقاومة الهرطقة وسحقها.

«هذه هي محاكم التفتيش التي لم يكن لها مثيل في التاريخ، وطوال خمسـة قرون انتزعت هذه الآلة الجهنمية مئات الألوف مـن الأبريـاء في جميـع أنحاء أوربا من أسـرهم ليـلاً لمجرد وشـاية كاذبة عـن هرطقتهم المزعومة، وقضـوا في السـجن شهوراً وأعواماً.

«ولـم يكن الذيـن يعذبون في محاكـم التفتيش المتهمون وحدهم وإنما يعذب الشـهود أيضـاً حتى يقروا بكل ما يعرفونه عن الحقيقة !.

«وحتـى الموتى لم يكونوا بمنجاة من محاكم التفتيش، ففي حالات كثيـرة كانت تجـرى محاكمـات للموتى الذيـن غادروا الحياة منذ عشـرات السـنين، ويتضـح أنهم مذنبـون، فتحفر قبورهم، وتؤخذ عظامهم وتحرق.

«رافقـت محاكـم التفتيش فـي القـرون الوسـطى ظاهرة أخرى وهي ظهور قبائل جوالة من الجواسـيس الخصوصيين، معظمهم من الرهبان وصـغار القسس، كانوا يختلطون بالنـاس في المـدن والقـرى ليتشـمّموا أفكارهم وعقائدهـم وخلجات أنفسـهم، ثم يبلغوا السلطات الكنسـية بأسماء من يشكون في حكمتها ورحمتها.

وكانت محاكم التفتيش في إسبانيا أكثر قسوةً وجبروتاً منها فـي أي مكان آخر، وقد أنشـئت هذه المحاكـم عام ١٤٨٠ بأمر الملكين: فرديناند وإيزابيلا، وظلت تعمل حتى عام ١٨٣٤، أي: مدة ٣٥٠ عام بلا انقطاع»[١].

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٥٣-٥٤-٦٨-٦٩.

صورة عامة للحضارة الإسلامية المتوهجة بالنور في القرون الوسطى الأوربية

دخلت أوربا في القرون الوسطى أو العصور المظلمة دخولاً يكاد يكون شاملاً في القرن السادس الميلادي، فكيف كان العالم الإسلامي؟ وكيف كان مسار الحضارة العربية الإسلامية في الحقبة نفسها؟

■ يرسم هذه الصورة العامة للحضارة الإسلامية في القرون الوسطى -بالنسبة إلى أوربا - عدد من المؤرخين والباحثين الذين وصفوا الحضارة الإسلامية في تلك الحقب وصفاً موضوعياً أميناً:

١- وصْفُ أرنولد توينبي - في تاريخ البشرية -: «كان لعبقرية محمد أثر كبير في نقل رسالة ربه إلى قومه، وقد كان تاريخ الجزيرة مرتبطاً بذلك.. وفي عصر النبي كانت الشحنة الروحية المتراكمة في الجزيرة العربية على وشك الانطلاق، وجاءت رسالة محمد في الوقت المناسب؛ إذ تلقى هذه الشحنة، فأحسن استعمالها، وذلك برؤيته النيّرة وتصميمه وحكمته[١].

(١) لم تكن رؤية بشرية، وإنما كان الأمر وحياً يوحى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا... ﴾ [الشورى: ٥٢].

وسـرعة الفتوح التي تمت على أيدي الدولة الإسلامية تدعو إلى الإعجاب.

ومما حفز النشـاط العقلي في المجتمع الإسـلامي الحاجة إلى تزويد الإسلام بالأدوات العقلية.

إن تدفق الترجمة من السـريانية واليونانية إلى العربية في القرن التاسـع الميـلادي (الثالث الهجري) يـدل على أنه كان هناك قراء مثقفون نشـطون. وتركزت هـذه الحركة في بغداد التي أنشئت سـنة ٧٦٢م عاصمة للخلافة، وقد أصبحت مدينة عالمية»[١].

٢- وصـف (هربرت جون ويلز) - في كتابه: موجز تاريخ العالم -: «وهكذا حـدث أن التجميـع والنقد المنظـم للحقائق الذي أبداه الأغريق لأول مرة، عاد سيرته الأولى في ثنايا النهضة المدهشـة التي نهضها العالم السامي[٢]، فالآن دبت الحياة في بذرتي أرسـطو ومتحف الإسـكندرية اللتيـن طال العهد علـى خمودهمـا وإهمال النـاس لهما، وإذا همـا تنبتان من

(١) ارنولد توينبي: تاريخ البشرية جـ ٢ ص ٨١-١٠٧-١٠٨.

(٢) يطلق بعض الكتّاب والمؤرخين الغربين وصف (السامي) على العرب بحسبانهم ساميين، والوصف صحيح من حيث الأرومة الأولى فـ (سام أبو العرب) كما جاء في الحديث النبوي الذي رواه أحمد والترمذي.

جديد، وتأخذان في الإثمار. لقد تم للعرب في حقول العلوم الرياضية والطبية والطبيعية ضروب كثيرة من التقدم، فنبذت الأرقام الرومانية، وحلت محلها الأرقام العربية التي نستعملها إلى يومنا هذا، واستعملت علامة الصفر لأول مرة. ولا يخفى أن اسم «الجبر» نفسه لفظ عربي، وكذلك كلمة (كيمياء)، ولا شك في أنهم (أي: المسلمون) وفّقوا إلى مستنبطات في المعادن والتطبيق الفني كثيرة، ولها قيمة قصوى، **فهم الذين عثروا على السبائك والأصباغ والتقطير والألوان والعطور وزجاج العدسات.**

وبفضل فلسفتهم عادت الحياة إلى فلسفة القرون الوسطى في كل من فرنسا **وإيطاليا والعالم المسيحي**»[(١)].

٣- وصف محمد العزب موسى - في: حرية الفكر -: «في عام ٨٩١م كان في بغداد مائة مكتبة عامة يستعين بها طلاب العلم بالاستعارة والاطلاع، وبكل مكتبة قسم للترجمة والنسخ، وقاعة كبرى للندوات والمناقشات، وكانت مدينة صغيرة مثل النجف تفخر في القرن العاشر الميلادي بامتلاكها مكتبة تحوي ٤٠ ألف مجلد.

(١)راجع: تاريخ أوربا الحديث والمعاصر لعبدالفتاح أبو علية وإسماعيل ياغي ص ١٢-١٣.

وكانت الكتب تكلف المجتمع العربي الملايين في كل عام.

فالمكتبة النظامية في بغداد مثلاً كانت ميزانيتها السنوية مليونين ونصف مليون دينار ذهبي تنفق في شراء الكتب ونسخها وتجليدها وتجديدها.

وفي عام ١٠٠٠ ميلادية نشر ابن النديم فهرسه الذي يقع في عشرة مجلدات تشتمل على أسماء جميع الكتب التي ظهرت بالعربية حتى ذلك الحين سواء في الفلسفة أو الفلك أو الرياضيات أو الطبيعة أو الكيمياء أو الطب»[١].

٤- وصف (جون ديزموند برنال) - في كتابه: العلم في التاريخ -: «صعد الإسلام صعوداً فجائياً، واستطاع المسلمون أن يغلبوا كلاً من الجيشين الروماني والفارسي في خلال خمسة أعوام بعد وفاة النبي، ولم تستطع أي قوة أن تتصدى لهم بعد ذلك لزمن طويل.. وقد امتدت فتوحات الإسلام حتى وصلت في القرن الثامن الميلادي إلى آسيا الوسطى شرقاً وإلى إسبانيا غرباً. ودانت له كل المستعمرات الرومانية في إفريقيا وآسيا باستثناء آسيا الوسطى، كما دانت له كل الإمبراطورية الفارسية الممتدة عبر آسيا الوسطى

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٩٨-٩٩.

حتى الهند، ومنذ ذلك الوقت أصبح لمعظم هذه الأنحاء ثقافة مشتركة، وديانة مشتركة، ولغة أدبية مشتركة، وظلت لقرون عدة ذات حكومة مشتركة، وتجارة حرة. وقد كفل كل من الدِّين والحج أن يتنقل الأدباء والشعراء بحرية في كل الأنحاء ما بين المغرب والصين.

وكان الأثر المباشر هو: التنشيط الكبير للثقافة والعلوم.. ولم يحدث تخلف يذكر في الجانب العلماني[١].

أيضاً فمنذ البداية لم يضع الدين الإسلامي قيوداً على الفكر البشري مثلما فعلت الكنيسة.. وقد سعى قادة المسلمين عقب القرن الأول لفتوحاتهم سعياً جاداً للحصول على المعارف اليونانية القديمة وعلى غيرها من الثقافات بقدر ما كان القرآن يسمح به[٢].

---

(١) يقصد بهذا التعبير: حرية الفكر وسعة دائرة اجتهاده في النظر وابتكار وسائل التجديد والعمل والحركة، وألّا يتدخل الدين في التجارب العلمية، ذلك أن مفهوم العلمانية بمعنى فصل الدين عن الدولة لم يعرفه المجتمع المسلم، ولم تأخذ به الدولة المسلمة حيث إنه يتناقض مع منهج الإسلام.

(٢) القرآن يسمح بل يحض على تحصيل المعرفة النافعة من أي مصدر جاءت وإلى أي حقل من حقول العلم انتسبت: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا.....﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]. والعلوم والمعارف الصحيحة النافعة هي أثمن وأنفع ما في الأرض.

opelikanalic.com

وفي خلال المدة القصيرة من عام ٧٥٤ حتى عام ٨٦١م، في عهد الخلفاء العباسيين: المنصور، وهارون الرشيد، والمأمون بل والخليفة الورع المتوكل، لقيت العلوم تشجيعاً لم تشهد مثله منذ أيام متحف الإسكندرية، ولم يكن الخلفاء الأمويون وصغار الأمراء الذين خلفوهم في إسبانيا ومراكش أقل اهتماماً.

وبفضل تلك الرعاية من قبل الحكومات والأثرياء تمكن الأطباء والفلكيون من مباشرة تجاربهم وتسجيل مشاهداتهم كما أنها كفلت حمايتهم من المعارضة القوية التي كان المتعصبون الدينيون يبدونها»[١].

٥- وَصْفُ ستانوود كب - في كتابه: المسلمون في تاريخ الحضارة -: «في قصة الإنسان، تكوّن الحقبة العربية الإسلامية فصلاً كبير الأهمية؛ فقد كانت واحدة من ثلاثة عصور علمية كبرى في العالم، فهي تتوسط الطريق لتقيم حلقة تصل بين (جنين العلم) عند الإغريق وبين (مولد العلم والتكنلوجيا) في العصر الحديث.

وأبدى العرب شعوراً عملياً في بعثهم لعلوم العالم التي أصابها النسيان أو الإهمال وتوسعهم فيها. وكان المأمون

(١) جون برنال: العلم في التاريخ، جـ ١ ص ٢٩٦-٢٩٩.

مثـالاً دقيقاً لهذه الروح العملية. فإن حماسـه للعلم المجرد لم يقلل من عنايته بصـالح الفلاح البسـيط، الرجل الذي يمسك بالفأس، وعلى أكتافه دائماً تقوم أساسـات أعباء الحضـارة. فلقد كان على وعي كامل بأهمية التربة وفلاحتها كمورد لدخل الدولة، وكوسيلة لرخاء الشعب وسعادته على السواء.

وتحقـق أبـرز تقـدم للأندلس الإسـلامية تحـت حكـم عبدالرحمن الناصـر وخليفته الحكـم الثاني؛ هذان الخليفتان الموهوبـان اللذان حكما من عام ٢٩٩ إلى ٣٦٥هـ ٩١٢-٩٧٦م. وتشـير هـذه الحقبة إلى ازدهـار الأندلس في الثـراء والثقافة والسعادة بصورة رائعة»[١].

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٤٣-٦٤.

obeikandl.com

المقارنات: الموضوعية والزمنية

المقارنة الموضوعية

- **ويقصد بالمقارنة الموضوعية:** أن يُقارن واقع العصور الوسطى في أوربا بواقع الحضارة العربية الإسلامية.

١- يقول مؤلف كتاب - العلم في التاريخ: تحت عنوان: عصور الظلام في أوربا الغربية -: «بينما كان هناك تطور ثقافي لامع يجري في الإمبراطوريات الشرقية، وفي بلاد الإسلام كانت معظم أوربا لا تزال تعاني من حالة الارتباك التي خلفها انهيار الإمبراطورية الرومانية والحضارات البربرية، وخيم الانحلال على المدن في كل مكان في الحقبة ما بين القرن الخامس والقرن التاسع. وتلاشت هذه المدن تماماً في بريطانيا، حيث كانت مدناً دخيلة. أمّا في إيطاليا، فقد بقيت المدن؛ إذ كان لها من العمر ألف سنة، ولكنها أصبحت نصف مدمرة أو مهجورة»[١].

٢- ويقول مؤلف كتاب حرية الفكر: «وقد عملت الدولة الإسلامية على التوسع في نشر العلم ابتداء من سن الطفولة. وفي الوقت الذي كان فيه ملوك وأمراء وأشراف أوربا يجهلون القراءة

(١) جون برنال: العلم في التاريخ جـ ١ ص ٣١٣.

والكتابة، كان ملايين الأطفال يترددون على الكتاتيب المنتشرة بوفرة في جميع أنحاء العالم الإسلامي»[١].

٣- ويقول مؤلف كتاب: تاريخ أوربا في العصور الوسطى: جوزيف نسيم يوسف: «أفاقت أوربا من وحشة العصور المظلمة في أواخر القرن الحادي عشر لتجد نفسها أمام حضارة إسلامية شامخة البناء»[٢].

٤- ويقول مؤلف كتاب: المسلمون في تاريخ الحضارة، تحت عنوان: تاريخ الظلمات: «وقد ازدهر العلم والتعليم في ظل النفوذ الإسلامي منذ أن تبوأت بغداد مكان الصدارة والقوة في منتصف القرن الثامن الميلادي.. وما من من جزء آخر من العالم المعاصر وقتذاك تميز بمثل هذه الحيوية، فإن أنوار الحضارة الإغريقية والرومانية كانت قد انطفأت وأحدقت بأوربا العصور المظلمة.

إن القرن السابع الميلادي الذي شهد قيام الإسلام قد شهد أيضاً أوربا وهي تدخل العصور المظلمة.

---

(١) محمد العزب موسى: حرية الفكر ص ٩٩.

(٢) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ أوربا في العصور الوسطى ص ٣٧٩.

openkandil.com

وفـي خـلال حقبة تدهور العلـم الإغريقي، جـاءت (حركة العـرب) إلى الأمـام ليكونوا طلائـع الحضـارة. وهكذا قيض لهذه الأمة الفطرية أن تغلب فوراً على نصـف العالم المعروف وقتذاك، وأن تحيي ما درس من حضارة الإغريق وعلومهم، وأن تنقل إلى أوربا النائمة المعارف والمهارات.

وجاء أقصـى مَدّ للحضـارة الإسـلامية بين سـنتي ٨٠٠-١١٠٠م -١٨٤-٤٩٣هـ مقارنا بأدنى جزر للحضـارة الأوربية، فبينما كان المسـلمون ينعمون بمسـتويات عامة للحياة، تعادل تلك المسـتويات التي كانت للحضارة الإغريقية والرومانية، إن لم تكن تتفوق عليها. بينما كان المسلمون كذلك، كان الأوربيون يعيشـون في مبـاءة التخلف، وسـجن الإقطاع.. وقد اصـطلح بحق على تسـمية هـذه القرون مـن التاريخ الأوربي بالعصـور المظلمة.

لقد أيقظت العلوم والتكنلوجيا العربية، أوربا من العصـور المظلمة.

إن الابتـكارات التكنولوجية الكبـرى التي حدثت بين عامي ٥٠٠-١٥٠٠م ليسـ بينهـا إلا القليل الـذي لا ينبئ عن آثار من الحضارة الإسلامية»[١].

(١) ستانوود كب: المسلمون في تاريخ الحضارة ص ٤٩-١٠٩.

المقارنة الزمنية

ويُقصد بالمقارنة الزمنية إثبات القرون الوسطى الأوربية الميلادية وإثبات ما يقابلها من القرون العربية الإسلامية الهجرية، وذلك من خلال الجدول الزمني الآتي:

أكثر القرون الوسطى الأوربية تخلفاً وظلاماً م	أكثر القرون الإسلامية تنويراً ونهضة وتقدماً هـ
١- القرن السابع (ظلام)	١- القرن الأول (النبوة والخلافة الراشدة ومعظم العهد (الأموي): خطاب العقل. وتصحيح الاعتقاد. وتمجيد العلم. وتكريم الإنسان.
٢- القرن الثامن (ظلام)	٢- القرن الثاني (جزء من الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية): استمرار حركة التنوير المعرفي الشامل.
٣- القرن التاسع (ظلام)	٣- القرن الثالث: الدولة العباسية (ازدهار العلوم النقلية والعقلية والتجريبية)
٤- القرن العاشر (ظلام)	٤- القرن الرابع: الدولة العباسية (استمرار النهضة والازدهار)

obeikandl.com

٥- القرن الحادي عشر والثاني عشر (ظلمات ووحشية الحروب التي تسترت بالصليب)	٥- القرن الخامس والسادس، مواجهة العالم الإسلامي لهذه الحروب، واتصال الغرب بنهضة العالم الإسلامي واستفادته منها.
٦- القرن الثالث عشر (دخول أوربا في حقبة جديدة من الظلام من الناحيتين العلمية والفكرية) وذلك بإصدار البابا جريجوري أمراً عام ١٢٣٣ بإقامة محاكم التفتيش.	٦- على الرغم من تدهور الدولة العباسية، فإن نهضة التنوير العلمي والفكري ظلت مستمرة، ففي هذه الحقبة مثلاً: تكشف الطرح العلمي الفكري بأن الأرض كروية، على حين كان الطرف الآخر يَعُد ذلك هرطقة وكفراً.

دلالات المفهوم الحضاري (التصحيحي)

- إن للمفهوم الحضاري التصحيحي الذي ابتدره سلمان وطرحه بوضوح شديد، فصحح به مصطلحاً خاطئاً، بل أسطورة شائعة: أسطورة إسقاط مقولة (القرون الوسطى المظلمة) على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية.

إن لهذا المفهوم دلالات ومضامين متعددة متنوعة، يمكن إجمالها فيما يأتي:

obeikandl.com

١- إن وصف القرون أو العصور الوسطى المظلمة لا ينطبق على التاريخ العربي الإسلامي، فالوصف يصور حالة من التخلف العلمي والفكري والسياسي والاجتماعي العام هناك، على حين أن العالم الإسلامي كان على النقيض من ذلك، في المدى الزمني نفسه.

٢- لذلك، فإن من الموضوعية والأمانة العلمية أن توصف القرون الإسلامية - المقابلة للعصور الوسطى المظلمة الأوروبية - بـ (القرون الأولى لحركة التنوير العالمية).

٣- في العهد العباسي برز جمهرة من العلماء مثل: الرازي.. والخوارزمي.. وابن الهيثم.. وبينما كان هؤلاء موضع حفاوة وتشجيع من قبل الخلفاء والأمراء والأثرياء في الدولة المسلمة، كان العلماء في أوربا - على ندرتهم الشديدة - يضطهدون ويطاردون ويحرقون أو يسجنون حتى يستنفد السجن طاقتهم الإبداعية كما حدث - مثلاً - لروجرز بيكون.

٤- تقتضي الدقة أن يقال:

أ - إن أوربا لم تخلُ من ومضات تشع - على استحياء - في ظلام مطبق عام. بيد أن السياق العام للأوضاع هناك كان متخلفاً في التفكير وفي التعامل مع الكون والحياة والإنسان والدين.

ب- إن العالم الإسلامي نفسه لم يخلُ من نقائص وسلبيات وجمود، بيد أن سياقه الحضاري العام الغالب كان مستنيراً. ولم يشهد - مثلاً- محاكم تفتيش أرعبت أوربا قروناً متلاحقة، وجعلت الناس يخافون من أنفسهم.

٥- مهما يكن الرأي في تحديد بداية النهضة الحديثة في أوربا فإن ثمة حقائق ينبغي تسجيلها وهضمها، منها:

أ- أن الحروب الصليبية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين كانت (نافذة)، أطلت منها أوربا على ما عند العرب والمسلمين من علوم ومعارف وأسباب تقدم ونهوض. ولقد أشار إلى ذلك أكثر من مؤرخ، وأصّلوا إشاراتهم بأنه كان هناك إحساس أوربي قوي بضرورة التقدم والنهضة.

ب- على الرغم من محاولات النهوض والتحرر من الإرث الثقيل المظلم، فإن سحباً من الظلام الشديد ظلت تلف مناطق أوربية حيث ظلت محاكم التفتيش تعمل حتى عام ١٨٣٤م.

ولا يتم تمام هذا الفصل حتى نقول: إن سلمان بن عبدالعزيز وهو ينقض - بعزم وحزم وصرامة وصراحة - مقولة (القرون

الوسطى المظلمة من حيث إسقاطها على تاريخ الحضارة العربية الإسلامية لم يكن الرجل وهو يفعل ذلك يبوح بـ(خاطرة) عارضة، لاحت ثم غابت.

ولم يكن يعبر عن (فكرة) طارئة: استقرت في الذهن لحظة ثم غابت في زحمة الأحداث والحياة.

وإنما كان نقضه البصير لتلك المقولة - المُسقَطة على التاريخ العربي الإسلامي - (منهجاً ثابتاً) ذا رؤية مستقرة، واقتناعاً راسخاً، ممتداً في الزمن والوعي والشعور.

مثلاً: منذ سنوات عديدة، وأنا أسمع منه هذا المفهوم وهو يردده في كل مناسبة مواتية.. ومن هذه المناسبات: حضوره (المهرجان البوسني الضخم): ممثلاً للمملكة العربية السعودية - حكومة وشعباً - ورائداً للعمل الخيري الإنساني السعودي النزيه الذي قاده من أجل تقدم البوسنة والهرسك، وقد كان ذلك المهرجان احتفاء جميلاً به.

كانت تلك المناسبة في سبتمبر عام ٢٠٠٠م.. بعد ذلك بسنوات سبع، أي: في يوليو عام ٢٠٠٧ جرى بيننا حوار ابتدره هو بقوله - معلقاً على مواقف متحاملة على الإسلام والمسلمين وعلى تاريخهم وحضارتهم - قال: «هل الكوكب الأرضي يتسع لكل الأديان والأمم، ويضيق - فقط - بدين

الإسلام والمسلمين؟.. إننا نعجب من هذا التحامل غير المبرر على الإسلام كدين؛ لأننا نعلم أن الإسلام دين سماحة وتعارف وتفاهم واحترام للتعدديات المختلفة كما نعلم أن الإسلام يحرص على إزالة الأسلاك الشائكة بين الثقافات والحضارات. وقد جاء بهذه القيم في وقت كان فيه العالم غارقاً في الظلام، أو في (القرون الوسطى المظلمة) بالنسبة لأوربا، وهي القرون التي كان يقابلها في الوقت نفسه: نهضة التنوير العقلي والعلمي والمعرفي والفكري والثقافي في المجالات كافة في الأمة العربية الإسلامية، كما شهد بذلك علماء ومفكرون غربيون يصعب إحصاء أسمائهم ومؤلفاتهم الآن.

نعم.. هو (منهج ثابت) لدى سلمان: منهج التفكير العميق في المفردات والمصطلحات وغربلتها ابتغاء إقرار السليم منها، ونفي الخاطئ المعوج المضلل.. ومن هذه المصطلحات التي رفضها بحزم وتبصر: مصطلح (القرون الوسطى المظلمة)، لا من حيث نشأته في بيئته واستعماله هناك، وإنما من حيث إسقاطه - بغير علم ولا دقة - على تاريخ العرب والمسلمين.